مجلة الرائد

العدد : ٢٢١ الموافق في ربيع الثاني ١٤٢١ هجري ٧/٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : علاج الإستبداد	بقلم :د. صلاح الدين بن إبراهيم

ما أكثر الحوادث التي تذكر عرب اليوم بالاستبداد السياسي الذي شوَّه الإنسان ، وأذل الشعوب ، وأهدر الكرامة ، وعبث بالموازين والقيم .. وفي هذه الأيام يكثر الحديث عن « الفساد » في أروقة الحكم العربية ، وينسى كثيرون أن « الاستبداد » أصل ورأس الفساد .. وهذا الذي دعانا إلى إعادة نشر ما سبق أن صدر في الرائد ١١٤

الاستبداد السياسي مرض قديم جديد ، إذا حلّ بأمة أتى على بنيانها العقيدي والاجتماعي والخلقي والاقتصادي من القواعد . في ظله تمسخ حقيقة الإنسان فتضطرب قيمه وتختل موازينه ..

ذكّرني هذا المرض الذي يفتك بأمتنا بكتاب « **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد** » لعبد الرحمن الكواكبي ، هذا الكتاب صدر عام ١٩٠١م وفيه أماط مؤلفه اللثام عن وجه الاستبداد الكالح البغيض إلى النفس السوية ، وأبان الآثار المدمرة التي تنشأ عن طغيان السلطة السياسية ، فرأيت أن أنقل من كلام الكواكبي مقتطفات تفضح بعضاً من جرائم المستبدين العتاة ، وكأني به يتحدث عن طواغيت هذه الأيام وما أحدثوه من فساد في النفوس والعلاقات الاجتماعية وسائر مجالات الحياة .

يقول الكواكبي : « **الاستبداد يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها ، أو يفسدها ، أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ، ويجعله حاقداً على قومه ، لأنهم عون الاستبداد عليه ، وفاقداً حُبّ وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه** » [1] .

ويقول : « **الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء ، فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة في الناس ، والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر ، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية .**

ويصل تسفُّل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأُبَّهَةِ والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه

تبهر أبصارهم ، ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم ، فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء ، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين يدي الذئاب ...

وقد قبلَ الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكي المتظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين ، وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عُتّواً ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً . كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيُّل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة !! » [٣] .

وتذكرت ، وأنا أقرأ كلام الكواكبي ، الشاعرَ العراقي معروف الرصافي وقصيدته الساخرة المعبرة عن سياسة المستبدين الطغاة اليوم ، وكان قد قالها في ظل الاستعمار الانكليزي ، ونشرها بعنوان « الحرية في سياسة المستعمرين » [٢] يقول الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلامَ محرّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النُّوَّمُ
وتأخَّروا عن كل ما يقضي بأنْ تتقدموا
ودعوا التفهّم جانباً فالخير أن لا تفهموا
وتَثَبَّتوا في جهلكم فالشَّر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا أبداً وإلا تندموا
إن السياسة سُّرها لو تعلمون مُطْلْسَمُ

من شاء منكم أن يعيـــش اليـــوم وهو مكرّم
فلْيُمْس لا سمعٌ ولا بَصَرٌ لديه ولا فمُ

لا يستحق كرامة إلا الأصمُّ الأبكمُ
ودعوا السعادَة إنما هي في الحياة توهّمُ
فالعيشُ وهو منغَّــمٌ كالعيــش وهو مُذمَّـمُ

إنْ قيلَ : هذا شَهْدُكُمْ مُرٌّ ، فقولوا : علقمُ
أو قيلَ : إنّ نهارَكم ليلٌ ، فقولوا : مُظلمُ
إن قيلَ : إنّ ثِمادَكمْ سيلٌ ، فقولوا : مفعمُ[٤]
أو قيلَ : إنّ بلادكم يا قومِ سوف تُقسَّمُ
فتحمَّــــدوا وتشــــكَّروا وترنّحـــوا وترنّمـــوا

وعامةُ الناس ، في ظل الاستبداد ، يرون مفازة تفصلهم عن الحق فيرهبون اجتيازها ، ومعظم أهل العلم والرأي منهم يفرُّون من تبعات قيادة سفينة الأمة ، أما الوصوليون ؛ عبدة الدنيا والدرهم والجاه الفارغ ، فإن المستبد يستذلهم ويقودهم من لجام أهوائهم ومطامعهم إلى حيث يريد ، ويصير بعض الناس لبعض قيداً يخذّله عن العمل بالحق والدعوة إليه .

والخروجُ من ظلمات الاستبداد إلى نور الحرية .. إنما يكون بولادة جيل يحمل مشاعل الحق ، يضيء به الطريق ويجمع عليه التائبين المنيبين لربهم عزَّ وجلّ ، جيل يصبر على اللأواء ويمضي مستهزئاً بصيحات المستبدين وبصراخ المخَذّلين ، جيل يكون كل فرد فيه ، بحاله وقاله ، كما قال الأستاذ عصام العطار في قصيدة بعنوان « **أمضي مع الحق** » :

أمضي مع الحق والصحراءُ محرقةٌ لا ظلَّ فيها ولا مأوى لإنسانِ
أمضي مع الحق والأمواجُ هادرةٌ وقد تقاصَرَ خوفاً كلُّ ربانِ
أمضي مع الحق والأجواءُ عاصفةٌ والأفقُ يُشْعِلُ نيراناً بنيرانِ
أمضي مع الحق والظلماءُ حالكةٌ وبارقُ الفجر لم تبصره عينانِ

أمضي مع الحق والأخطار محدقةٌ والموتُ يرنو بأشكال وألوانِ
أمضي مع الحق والأهواءُ حاكمةٌ فلا ترى غيرَ أهواءٍ وعُبدانِ
أمضي مع الحق والأسقامُ ضاريةٌ والجسمُ شِلْوٌ مُدَمّىً بين عقبانِ
أمضي مع الحق ما دار الجديـــــدانِ ولا سلاحَ سوى عزمي وإيمـاني

أمضي ولو سدَّ دربي كلُّ طغيانِ ولو تنكَّر لي أهلي وإخواني
أمضي وأمضي ولا أصغي لفتّانِ من ماكر الإنس أو من مارد الجانِ
الله حسبي .. له قلبـي وَوجـدانـــي ووحدهُ القصدُ في سِرِّي وإعلانـي

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٠-٩١ .

(٣) ديوان الرصافي ص ٤٢٦

(٤) الثماد : الماء القليل .